القصر الذي بالقلعة

Le Palais du Fort à Baghdâd.

في الجنوبي الغربي من القلعة ببغداد الآن قصر على دجلة فيه عدة حجر وبينها إيوان مستقبل دجلة فيه من الزيارة العربية ما يعجب ويفرح ولكن أيدي البلى قد تعاورته فشوهت من صورته ورفثت من زيازته وهدمت من آجره وهو على ذلك دليل على العظمة والفخامة.

وآجره وسط ليس بصغير الحجم ولا بكبيره فهو من طرز الآجر الذي في منارة مدفن الشيخ معروف الكرخي وأصغر من آجر المدرسة المستنصرية وقنطرة حربى، ويشبه طابوق باب الحلبة «أي الطلسم» على ما حققناه باتعامنا النظر في صورة ذلك الباب.

اما منارة الشيخ معروف فقد كتب على ظاهر حوضها ما نصه «بنيت هذه المنارة سنة اثنتي عشرة وستمائة» فهي مبنية زمن خلافة الناصر لدين الله العباسي ومثلها في البناء منارة جامع قمرية ومنارة جامع الخفافين اليوم بلصق المدرسة المستنصرية من الجنوب.

والقصر الذي بالقلعة اليوم يسميه العامة وامثالهم «قصر المأمون» ولا نعرف لهم دليلا على هذا القول الغريب والحكم المتفسخ فان للمأمون قصرا في الجانب الغربي من بغداد. ففي ص٢٧٠ من تاريخ مناقب بغداد ما عبارته: «وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر المأمون والتوثة وغير ذلك» وقصرا بالجانب الشرقي لم يحافظ على اسم المأمون. فقد ذكر ياقوت الحموي في مادة «تاج» ماعبارته: «وكان الى ذلك الوقت يسمى: القصر الجعفري ثم انتقل الى المأمون» ثم قال «وبقي الحسن مقيما في القصر المأموني» فهذا يدل على ان للمأمون قصرا آخر نسب اليه فلنلخص كلام ياقوت على هذا القصر لنعرف امره والخلاصة هي:

ان جعفر بن يحيى البرمكي بنى بالجانب الشرقي قصرا فلم يستحسنه صاحبه

مؤنس بن عمران وراوضه على ان يخص هذا القصر بالمأمون عند حضوره حضرة الرشيد ففعل وتحمل الرشيد ما انفق عليه وتركه لجعفر فلم يزل جعفر يتردد اليه أيام فرحه ومتنزهاته الى ان أوقع الرشيد بالبرامكة، ثم انتقل الى المأمون ففتح له بابا شرقيا الى جانب البربة واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله قريبا منه منازل برسم خاصته واصحابه سميت «المأمونية» وكان قد أسكن فيه الفضل والحسن ابني سهل . وفرغ بسفرهما الى خراسان مع المأمون ولما ورد الحسن بن سهل بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) نزل في القصر المذكور وكان يعرف : بالمأموني ؛ فتزوج المأمون بوران وانزلت بهذا القصر وطلبه الحسن من المأمون فوهبه له وكتبه باسمه واضاف اليه ما حوله وغلب عليه اسم الحسن فعرف به مدة وكان يقال له : القصر الحسني ، وبعد موت الحسن بقي لابنته المذكورة بوران الى ايام المعتمد على الله العباسي فاستنزلها عنه بعوض واخذت هي في اصلاحه وتجديده ورمه واعادت ما دثر منه ؛ ثم توفي المعتمد على الله بالقصر الحسني سنة ٢٧٩ هـ (٨٠٢ م) ثم استولى عليه المعتضد بالله فاستضاف الى القصر الحسني ماجاوره فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا(١) وابتدأ ببناء قصر التاج وجمع الرجال لحفر الاسس فاتفق له انه خرج الى آمد فلما عاد راى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على نحو ميلين منه الموضع المعروف بالثريا ووصل بناء الثريا بالقصر الحسني وابتنى تحت القصر آزاجا من القصر الى الثريا تمشي جواريه فيها وحرمه وسراريه وما زال باقيا الى الفرق الاول الذي صار ببغداد فعفا اثره ، ثم مات المعتضد بالله في سنة ٢٨٩ هـ (٩٠١ م) وتولى ابنه المكتفي بالله فاتم عمارة التاج الذي كان المعتضد وضع اساسه ومد له مسناة طاعنة الى وسط دجلة . وكانت صفة التاج

١) وفي ص١٣ من مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٣٠ عن كتاب نشوار المحاضرة ما عبارته « كنت اتقلد لابي حازم وقوفا في ايام المعتضد منها وقوف الحسن بن سهل ، فلما استكثر للمعتضد من عمارة القصر المعروف بالحسني ادخل اليه بعض وقوف الحسن بن سهل كانت في يدي مجاورة للقصر » وذكر ابن خلكان في « ١ : ١٩٣ » من تاريخه ان قطر الندى بنت خمارويه وهي زوج المعتضد توفيت لتسع خلون من رجب سنة سبع وثمانين ومائتين ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد واراد به القصر المتكلم عليه الآن . (الكاتب)

مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشر اساطين خمس اذرع ووقعت في ايام المقتفي سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م) صاعقة فتأججت فيها وفي دارها وقبة الحمار وبقيت النار تعمل فيه تسعة ايام ثم اطفئت وقد صيرته كالفحمة وكانت - اي الصفة - آية عظيمة فاعاد المقتفي بناء قبة الحمار على الصورة الاولى ولكن بالجص والآجر دون الاساطين الرخام واهمل اتمامه المقتفي حتى مات وبقي على ذلك الى سنة ٥٧٤ (١١٧٨ م) فتقدم المستضيء بنقضه وابراز المسناة التي بين يديه - لعلها مسناة صفة التاج - الى ان تحاذي به مسناة التاج . فشق اساسها ووضع البناء فيه على خط مستقيم من مسناة التاج واستعملت انقاض التاج مع ما كان اعد من الآلات لعمل هذه المسناة ووضع موضع الصحن الذي يجلس فيه العباسيون للمبايعة ويسمى اذ ذاك : التاج ايضا وهو دار مشهورة جليلة المقدار واسعة الاقطار من دور الخلافة زمن ياقوت الحموي وفي موضع دار الخلافة كان القصر الجعفري اي القصر المأموني اي القصر الحسني .

موضع القصر الحسني والتاج

وضع العلامة لسترنج رمزا القصر الحسني في جنوب المستنصرية مما يلي جامع الخاصكي غربا على دجلة قرب ما يسمى اليوم « المحكمة الشرعية » وهذا على حسب خريطة ص ٢٦٣ من تاريخه . ووضع شرق القصر الحسني رمز جامع الخلفاء اي جامع سوق الغزل اليوم. ووضع تحت القصر الحسني «قصر التاج» قرب جسر مود اليوم من الشمال وجامع الخلفاء لم يسم عندنا بجامع القصر إلا اضافة الى احد هذين القصرين فباني التاج الحقيقي وباني جامع الخلفاء هو المكتفي العباسي كما ذكر ابن الطقطقي في الفخري . ولكون القصر الحسني اندمج في دار الخلافة ولكون دار الخلافة تحت الجسر العباسي القريب من شمالي المستنصرية ولان باب الغربة جنوب طريق الجسر المذكور كما ذكر العلامة لسترنج في الخريطة المذكورة ولكون المدرسة المستنصرية فيما يلي شمالي دار الخلافة كما نقل البحاثة يعقوب نعوم سركيس عن تاريخ ابي الفداء « ٣ : ١٧٠ » في لغة العرب « ٥ : ٤٥٣ » يظهر لنا :

١ - ان دار الخلافة لا تتجاوز شارع الجسر القديم اليوم .

٢ــ وان قصر المأمون الشرقي جنوب المستنصرية لا شمالها وبين القلعة اليوم والمستنصرية قراب ميل واحد .

٣ــ وان باب الغربة ليس بشريعة المصبغة نفسها اليوم بل بشرقها قليلا خلافا لما حققه الاستاذ يعقوب نعوم سركيس .

٤ــ وان قول العامة وامثالهم بان قصر القلعة اليوم هو قصر المأمون الذي لم يبق في الدنيا إلّا اسمه ضرب من الجهل او الظن او التغليب كما غلبوا لفظ « العادي » على كل شيء قديم .

قصر القلعة : قصر الناصر لدين الله

وبعد علمك باتقان بناية هذا القصر وصفة آجره وقدمه كما قدمنا في صدر مقالنا وان عصر الناصر لدين الله اطول عصور الخلفاء العباسيين وانه من اكثر متأخريهم عمارة وسعادة وسياسة وان أعلى بغداد في زمنه لا يتجاوز السور الشمالي وان السور المذكور لا يتجاوز سور القلعة الشمالي اليوم لوجود اطلاله تنقل لك ما قاله ابن جبير في قصر الناصر لدين الله الشمالي ونقلناه في لغة العرب « ٦ : ٤٨٨ » ونصه ــ والضمير عائد الى الناصر لدين الله ــ :

« وقد انحدر عنها صاعدا في الزورق الى قصره باعلى الجانب الشرقي على الشط » فقصر القلعة اليوم باعلى الجانب الشرقي ايضا وعلى دجلة فهو قصر الناصر لدين الله اعتمادا على الادلة المذكورة . وان اقوى شاهد على ان شمالي القلعة اليوم كان شمالي بغداد اذ ذاك هو ان الناصر لدين الله خرب سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) محلة « المخرم » التي كانت بين الرصافة ونهر المعلى فكان شمال القلعة خرابا في ذلك الزمان على ماذكره المؤرخون فهل من مفند لقول من اقوالنا حبا للتاريخ ؟

مصطفى جواد

« لغة العرب » من يطالع هذه المقالة يجد ان هذه الادلة العقلية والنقلية (التاريخية) يصعب نقضها إلّا انه اذا ثبت لمحقق آخر ان البناء الذي شاده الناصر خربه من جاء بعده واقام على موطنه عمارة اخرى فالحق يكون بجانبه وتضعف هذه البراهين .

فهل بين القراء العراقيين من يرشدنا الى ذلك وله منا الشكر سلفا .